

أثر الارتحال في تكوين الشخصية العالمية: نماذج نواتية من القرن الثاني عشر الهجري

كلمة الدكتور عبد الرحمن بعمان

أستاذ بقسم التاريخ، جامعة أدرار



مقدمة

لقد حث السلف على ضرورة طلب العلم وتصيده من مصادره المباشرة من خلال اعمال الرحلة للقاء الشيوخ ومجالستهم والاختذ من أدبهم قبل علمهم، فطلب العلم غاية تتطلب التجرد التفرغ، ويقول أحد الحكماء ناصحا طلبة العلم: «واطلب العلم أولاً، ثم اجمع المال من الحلال، ثم تزوج، فإنك إن طلبت المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم، ودعاك المال إلى طلب الجواني والغلمان، وتشتغل بالدنيا والنساء قبل تحصيل العلم، فيضيع وقتك، ويجتمع عليك الولد وتكثر عيالك، فتحتاج إلى القيام بمصالحهم وترك العلم».

فطلب العلم الرحلة في سبيله يجب أن تكون في مرحلة الشباب لما يمتلكه الانسان في هذه المرحلة من قوة وقوة تجعله يقبل على العلم فلا يكبوا، وتتقد نار همته فلا تخبوا فتراه يقبل على طب العلم إقبال النهم، وجاعلا نصب عينيه الحديث الذي نصه عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله «إن الله أوحى إلي؛ أنه من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريق الجنة، ومن سلبت كريمته أثبتته عليهما الجنة، وفضل في علم خير من فضل في عبادة».

1 - مفهوم الرحلة: الرحلة في اللغة هب الارتحال والترحيل ويقال رحل الرجل أي سار، والسير هنا معناه الضرب في الارض. وجاء في معجم الوسيط، في مادة (رَحَلَ) ما يلي: رَحَلَ عن المكان رَحْلاً، وَرَحِيلاً، وَتَرَحَّلاً، الرَّحَالُ:

العرب الرُّحْلُ: الذين لا يستقرون في مكان، ويحلون بماشيتهم، حيث يسقط الغيث، وينبت المرعى. الرُّحَالَةُ: الكثير الرحلة (الرَّحْلُ): العرب الرُّحْلُ - الرُّحَالُ. الرحلة: وفي القاموس المحيط: ارتحل البعير: سار ومضى والقوم عن المكان: انتقلوا كترحلوا والاسم: الرحلة بالضم والكسر أو بالكسر: الارتحال وبالضم: الوجه الذي تقصده والسفرة الواحدة. وفي تاج العروس: رجُل رَحُولٌ، ورَحَالٌ، ورَحَالَةٌ: كثير الرحلة، وقوم رُحْلٌ: يرتحلون كثيرا¹

2. مفهوم الرحلة العلمية:

لقد خض الإسلام على الرحلة في طلب العلم، إذ تكررت الدعوة في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة على السير في مناكب الأرض ليرى العباد بدائع صنعة ودلائل قدرته وما أودع من أسرار في خليفته، وجاء ذكر الرحلة في القرآن الكريم تصريحاً وضمناً حيث يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾⁽²⁾، حيث ارتبطت الرحلة عند المجتمع المكي بالتجارة أولاً ولما جاء الإسلام تعددت أغراضها وفق متطلبات الوضع الجديد.

وكان طلب العلم واكتساب المعرفة أول ما حض عليه الإسلام في مناسبات عديدة فطلب العلم كان السبب في رحلة النبي موسى عليه السلام التي انتهت بقاء الخضر عليه السلام والدعوة للنفير إلى طلب العلم صريحة في الآية الكريمة، ولولا نفر منهم كما أن السنة النبوية المطهرة دعت إلى الرحلة في طلب العلم حيث ورد في فضل طلب العلم أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، ففي صحيح البخاري عنه ﷺ: «من سَلَكَ طريقاً يَطْلُبُ به علماً، سهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنة»⁽³⁾.

(1) الزبيدي تاج العروس 63/23، وأيضاً: الفيروز أبادي، القاموس المحيط الجزء 1/1298

(2) سورة قريش/2.

(3) أخرجه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، الجامع الصحيح، باب العلم قبل القول والعمل، دار الفكر: بيروت 1401هـ/1981م. ج 1/ص 119.

وقال ﷺ: «أفضل الأعمال طلب العلم»⁽¹⁾، وقال العليّؓ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب»⁽²⁾.

ويقول ابن خلدون في المقدمة: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك: أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة: علما وتعلّما ولقاء، وتارة: محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها وتفتحها».

3. دوافع الرحلة في طلب العلم:

تتعدد دوافع الرحلة العلمية، بحسب أهداف المرتحل ولعل أهمها:
أولاً: الرغبة العلمية الجارفة التي تدعو الطالب إلى الاستزادة من العلوم واستلهاهم التجارب من خلال مجالسة الشيوخ والأخذ عنهم.
ثانياً: قد ترتبط الرحلة العلمية بالواقع المعاش حيث أن عدم الاستقرار والامن كان يدفع العلماء وطلبة العلم إلى البحث عن بيئة علمية تمكنهم من الإفادة والاستفادة.

ثالثاً: أخذ العلوم رواية عن الشيوخ وبصفة مباشرة بدل من أخذها من المصنفات أو بطرق غير مباشرة.

رابعاً: الاحتكاك بطلبة العلم من الأمصار المختلفة مما يكسب الطالب أفكار ومهارات جديدة انطلاقاً من المناظرات التي تعقد ما بين الطلبة في شتى مسائل العلوم.

(1) أخرجه المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير بلفظ آخر وقال له شواهد تقويّه، رقم الحديث: 1240، ج2/ص36.

(2) أخرجه في كنز العمال قال: "عن الطيالسي عن صفوان بن عسال، وورد بألفاظ أخرى يقوي بعضها بعضاً" علاء الدين عليّالمتقي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح بكرى حياني وصفوة السقا، ط5، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1405هـ/1985م رقم الحديث 28747، ج10/ص147.

خامسا: الحصول على الاجازة والدخول في سلسلة الأسانيد حيث تعد الاجازة بمثابة الشهادة التي يمنحها الشيخ لتلميذه عند انتهاء فترة الدراسة، وهي تصريح برواية العلوم والمصنفات التي أخذها التلميذ عن شيخه طيلة مدة الدراسة.

4 . الرحلات العلمية في منطقة توات: كان الحج وطلب العلم من أهم دواعي الارتحال لدى أغلب علماء توات، فألف العديد منهم رحلاته؛ حيث وصفوا المناطق التي مروا بها والعلماء الذين التقوا بهم تنوعت بين الرحلات العلمية الداخلية نحو مراكز المعرفة في توات، والرحلات الخارجية نحو الحواضر العلمية المجاورة، فمن أمثلتها رحلة أبي عبد الله الفلاني إلى الديار التواتية، وهي رحلة قام بها إلى توات، لتلقي العلم عن الشيخ عبد الرحمن بن عمر التلاني، حيث مكث عنده شهرين وست ليالٍ، حيث استعرض فيها مكتسباته العلمية في مسقط رأسه وكيف أنه رحل إلى توات لاستزادة من علوم شيخها سيدي عبد الرحمن بن عمر ورغبة في الدخول في سنده وتصور لنا هذه الرحلة تلك الهمة الكبيرة التي حدث بالمرتحل إلى قطع كل تلك المسافة لمجالسة عالم توات والأخذ عنه.

ومن أهم نماذج اللون الثاني للرحلات العلمية رحلة أبي حفص عمر بن عبد القادر التلاني، وهي رحلة هامة، قاده إلى حاضرة فاس لطلب العلم، عدّد فيها شيوخه الذين أخذ عنهم، وعرض إلى بعض المسائل التي ناقشهم فيها، كما تحدث عن تصدّره التدريس بالمدرسة المصباحية وجامع القرويين، فهي فهرسة لشيخه، تسلّط الضوء على التواصل الحضاري بين توات والحواضر العلمية في المغرب الأقصى، وهي وثيقة وسند علمي لطلبة وعلماء توات في نفس الوقت، إذ تدلّ على خصوصيات عصر مؤلّفها وبيئته التي درس فيها، كما تحمل تراجم لعلماء كلّ من فاس ومكناسة الزيتون في ذلك العصر وبعض أوصافهم، وطرق تدريسهم وهيئة مجالسهم العلمية⁽¹⁾.

(1) عمر بن عبد القادر التلاني، فهرسة الشيوخ، تحقيق: عبد الكريم طموز، رسالة ماجستير، جامعة الامير عبد القادر، قسنطينة ص 67

كما تُنسب للشيخ عبد الرحمن بن عمر التلاني رحلات علمية داخل توات وخارجها أوردها فهرسته منها:

- رحلة إلى بلاد التكرور: صحبة شيخه سيدي عمر الرقادي، حيث أقاما بقرية تودن⁽¹⁾، ومنها انتقلا إلى مدينة أروان⁽²⁾ وفيها التقى بشيخه أحمد بن صالح السوقي التكروري، حيث درس على يديه بعض المصنفات اللغوية مثل الخزرجية في علم العروض وقد اختار لذلك وقت القيلولة لانشغاله بقية اليوم مع الطلبة الذين كانوا يتلقون الدروس عنه بلغات عدة لاختلاط أجناسهم، من عرب وتكرور وتوارق.

- رحلة إلى مدينة سجلماسة: في (1168هـ/1754م) ارتحل الشيخ إلى سجلماسة، لأخذ علوم القراءات والتجويد عن شيوخها حيث لقي هناك الشيخ صالح بن محمد الغماري⁽³⁾، كما حصل له اللقاء مع الشيخ أحمد بن عبد العزيز الهلالي⁽⁴⁾.

أما عالم توات، الشيخ سيدي عبد الكريم بن امحمد التمنيطي فقد أعمل الرحلة في طلب العلم قاده إلى بني عباس حيث التقى بشيخه سعيد قدورة الجزائري وأخذ منه اجازة شاملة، ليرحل بعدها إلى المغرب الأقصى ويحل بمراكش ويلتقي فقيهاها الشيخ أحمد بن أبي محلي الذي أجازه في علوم شتى.

(1) تطلق عليها الآن تسمية تاودني.

(2) أروان: مدينة في بلاد التكرور، بينها وبين تمبكتو، ثمانية مراحل إلى الشمال، وتقع الآن ضمن النطاق الحدودي لجمهورية مالي، ينظر: (الأرواني، مولاي أحمد بن بايكر، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، مخطوط بالمكتبة الزيدانية للثقافة نيامي النيجر، 08).

(3) عبد الرحمن التلاني فهرسته، ص 35.

(4) نفسه، ورقة 37.

5 . فوائد الرحلة العلمية

أ . الرحلة العلمية مقياس الهمة والصبر والاجتهاد:

ومن نماذج الصبر والهمة والاجتهاد ما نجده في النصوص الرحلة لعلماء توات، فالشيخ عمر بن عبد القادر التلاني رحل إلى فاس وجاور حلق الدرس فيها وأخذ عن جل مشايخ المغرب الأقصى حتى ظهرت موهبته وكثر حساده فاضطره ذلك إلى العودة إلى توات والتصدر للتعليم بها، حيث تذكر المصادر المحلية أن الشيخ عمر بن عبد القادر جلس للتعليم بجامعة القرويين وبالمدرسة المصباحية فتسعت حلقة وكثر طلابه مما أكثر حساده.

ومن النماذج أيضا، صبر وهمة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التلاني الذي دعت محبة تحصيل العلم إلى الترحال إلى بلاد التكرور والتجوال في حواضرها كأروان وتاودني والمبروك لتحصيل العلم والاستجارة من شيوخها، متكبدا عناء الطريق وشظف العيش، فنجده يغتنم فترة القيلولة حين تفتت العزائم ليتلقى العلوم على يد شيخه السوقي، كما أنه يمتنع على ما جبل عليه أقرانه من حب اللهو واللعب صابا جل وقته وجهده للتحصيل والشاهد هنا قصة ذلك القراد الذي حل بالبلدة وانصرف الطلبة لمشاهدته إلا الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر الذي لم يغادر حلقة شيخه لإدراكه بأن العلم إن لم تعطه الكل فلن تأخذ الجزء.

ب . الرحلة العلمية أداة لتوسيع المعارف واكتساب الخبرات

ومن أهم ما يمكن استفادته من هذه النصوص الرحلية عند علماء توات، أن إعمال الرحلة يسهم في توسيع معارف المرتحل، ومنها أن الشيخ عبد الرحمن التلاني عندما تعلقته همته بعلم القراءات اعلم الرحلة إلى سجلماسة ليأخذ الإجازة من الشيخ الغماري الذي كان يعد شيخ قراءة ورش في بلاد المغرب حيث لازمه مدة حتى أخذ عنه الإجازة⁽¹⁾.

(1) عبد الرحمن بن عمر التلاني، فهرسته ص18

وتعد تواجد نصوص الاجازات في متن الرحلة العلمية مقياسا واضحا لمكتسبات المرتحل حيث تقدم لنا صورة واضحة عن العلوم التي اكتسبها وتذخر رحلات علماء توات بنصوص الاجازات العلمية التي كانت تمنح لهم عند نهاية الطلب حيث يوصل بواسطته سند الطالب بشيخه ومن الامثلة الواضحة ما تطلعنا به فهرسة الشيخ عبد الرحمن التتلافي من إجازات وأسانيد مختلفة⁽¹⁾.

وإلى جانب اكتساب الاجازة يمكن للطلاب أن يكتسب خبرة شيخه في التعامل مع طلبة العلم خاصة فيما تعلق بطرق التدريس وإدارة حلقات العلم والشاهد من رحلات التواتيين مدى تأثر الشيخ عبد الرحمن بن عمر بأخلاق شيخه عمر بن مصطفى الرقادي الذي يعد أسوته في أخلاق المربي واجتهاد المعلم الذي يقضي بلا فتور جل يومه في حلق الدرس⁽²⁾.

ج - الرحلة العلمية ودورها في التكوين:

يعد ابن أب المزمري العالم الوحيد الذي ربط بين مناطق توات الثلاث فكان مولده بأولف من تيدكلت وتلقى العلم وقام بالإمامة والتعليم بتوات وكانت وفاته بقرارة... وكان يعرف بصاحب الجولان فلقد جال في المغرب الأقصى وفي تمبكتو وأروان ألف عدة مؤلفات في فنون متنوعة من العلم وخلف أشعاراً كثيرة⁽³⁾، ويذكر ضيف الله بن أب في رحلته، ذلك التواصل الذي كان بين أبيه وعلماء النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري (18م)، والتي تدل على عمق علم الرجل، وتقديره لهم، حيث كان يتنقل لهم من أجل حل مسائل فقهيه وأدبية ونحوية، حيث يقول: «وإني رأيته يوما أتى لوالدي في رحلتي لتجارين، فاستأذن عليه في داره، فأذن له، فدخل وأغلق الباب فظل عنده النهار كله،... كان

(1) أسانيد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلافي،

(2) أسانيد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلافي،

(3) الغصن الداني، ص 26

مشتغلا بإصلاح قصائد له، لأنني رأيته بعث له بها فضضب على كثير من أبياتها، فجاء بنفسه، وكان الشيخ إذا أشكلت عليه مسألة فقهيه سأله عنها»⁽¹⁾.

وفي الوقت الذي كان الشيخ ابن أب، يشد الرحال، إلى مجالسة العلماء، لجهه للعلم ولأهل العلم، خاصة النحاة منهم، حيث يشهد عنه، أنه اشترى عباءة، لرجل⁽²⁾ من أغلاد لمجرد تمكنه من الألفية، حيث دخل عليه وهو بالمسجد، بمعية الشيخ عبد القادر بن أحمد التوجي، ولما تكلم بكلام النحاة، توسم فيه شخصية ابن مالك صاحب الألفية، قال: «إنما فعلت ذلك لأنني رأيتني أعطي العباءة لابن مالك، لكن الشيخ - الرجل - طواها، وأراد أن يجعلها في رحله، فقال له الوالد: أريدك أن تلبسها الآن، لأنني أود وأرغب في ستر الألفية وأنت تعريها، فضحك المجلس من حنائه ورقة قلبه وشوقه لابن مالك وألفيته»⁽³⁾.

والظاهر أن تنيان لهذا العهد، كانت منارة علم وإقراء للقرآن وعدد من المتون كالمرشد المعين، والقرطبية، والدرر اللوامع، والأجرومية والألفية، حيث يذكر التلاني في فهرسته، علاقته بالشيخ عبد الرحمن الجنتوري، «فلما جالسته وقع في قلبي حبه فكنت لا أفارقه... وكذلك أترابي، ومن قاربني من صبيان المكتب - الكتاب -»، وكان ذلك من طيبة الرجل ومنهجيته في التعامل مع التلاميذ، وربما منهجيته في التدريس اكتسبها من شيخه ابن أب، الذي أعجبه تدرسه⁽⁴⁾، فكانت فائدته عظيمة، حيث يقول صاحب الفهرسة التلاني: (فاستفدنا منه أضعاف ما استفدنا من شيخنا أبي حفص، لانبساطه معنا ومداعبته وصبره على جفائنا، فأحببناه حبا شديدا»⁽⁵⁾).

(1) عبد الحميد بكري، النبعة، ص 90، نقلا عن الرحلة.

(2) لم يذكر اسم هذا الرجل.

(3) بكري، نفسه، ص 85.

(4) محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج 1، ص 99.

(5) التلاني، ص 88.

لقد كان لتنقل الشيخ الجنتوري إلى حواضر توات، حيث سافر بمعية الشيخ عمر لبلد ابن أب، وتلقى عليه قراءة الخزرجية وحضر دروسه في الفقه والنحو واللغة والتفسير⁽¹⁾، وكان مترددا على تنيلان، ومجالسة شيخه أبي حفص، لمدة تفوق السنة، فضلا عن جلوسه إلى ابن أب، مرارا بتنيلان، فكان لتلك الرحلات العلمية، أثرها البارز في التكوين الفقهي للشيخ الجنتوري.

خاتمة:

قال القرطبي: «وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام».

إن إعمال الرحلة في طلب العلم، كان من أهم العوامل التي كان لها الأثر البالغ في تكوين الشخصية العالمية في منطقة توات، فمن خلالها يتمكن طالب العالم من اكتساب المعارف والاحتكاك بالشيوخ ونقل المعرفة، وقد نتج عنها ظهور العديد من العلماء الذين أغنوا المشهد العلمي في توات تدريسا وتأليفا وحضورا اجتماعيا لافتا، في ظل تواصل عجيب بدت نتائجه في تبادل الاستشارات والآراء حول المسائل التي تعترض حياة الناس في مختلف حواضر المنطقة.



(1) التلاني، ص 133